ديانة العرب قبل الإسلام

دراسة في بيان القرآن الكريم

د. عبد الناصر سلطان محسن[1]

كثيراً ما يوصف عرب قبل الإسلام بالوثنيين، وهو وصف ذكره علماء التاريخ والأديان لمن ارتبطت عبادتهم بالأوثان، ولقد اتسمت دلالة هذا اللفظ بالمبالغة في حط هذه الديانة عند البعض، لكن هناك دلالة أخرى تحملها صفة "وثني" تعكس نظرية التطور في علم الأديان، والتي ترتبط بمفهوم الدين ونشأته، تلك النظرية التي تريد أن تؤكد تطور عقيدة الإنسان من الوثنية إلى التوحيد، وعليه فالإنسان هو خالق الإله بحسب زعم أصحاب هذه النظرية، وأنه لم يرث ديناً سماوياً قط، ومنه قد يُفهم أن الدين في أصله دين وضعي.

هذا ولم يصف القرآن والسنة عرب قبل الإسلام بالوثنيين، بل ورد وصفهم بالشرك حينما أشار إلى الأديان التي عرفها العرب واتصلوا بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج:17)، إن الاستخدام القرآني لكلمة الكفر أو الشرك يؤكد نظرية التوحيد، أي تحول التوحيد إلى وثنية وليس العكس، فأصل الكفر هو التغطية على الشيء والستر له، فكأن الكافر مغطّي على قلبه[2]، أما الصفة الثانية وهي الشرك، فهي تشير إلى أنهم كانوا يؤمنون بالله عز وجل ويجعلون معه شركاء.

وتهدف هذه المقالة إلى البحث في أصل ديانة العرب قبل الإسلام، ومن ذلك فهم موقف الإسلام من هذه الديانة، ومواجهة شبهة علاقة تأثر الإسلام بالوثنيات السابقة عليه، والتي دُعي فيها أن الإسلام يمثل مرحلة متطورة وناضجة للدين الذي كان شائعاً عند العرب وهو الوثنية.

---

[1] محاضر أصول الدين ومقارنة الأديان في جامعة سلطان أزلن شاه الإسلامية: مدينة كوالا كنجسار. ولاية براء. madhajy@hotmail.com

[2] الأزدي أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، "كفر"، (بيروت: دار الكتب العلمية، طذ، 1426 هـ، 2005م)، ج 2، ص 113.

المنهج التاريخي للدراسة.

إن القرآن الكريم يمثل أصدق صورة وأوثقها لمعتقدات العرب قبل الإسلام، ولا شك أنه قد عاصر الفترة المكية، فعكست الآيات التي نزلت في هذه الفترة صورة عما كان عليه العرب – الذين كانوا السواد الأعظم من سامعي القرآن– من اعتقاد، وكان عرض هذه الصورة إما بشكل صريح وذلك بذكر ما كانوا عليه، أو بشكل ضمني عن طريق تقرير العقيدة الصحيحة، أو تصحيح المعتقد، حيث كان هؤلاء موضوع تنديد، وتفنيد لتقاليدهم وعقائدهم، والذي يؤكد إمكانية استخراج عقيدة العرب قبل الإسلام من القرآن هو أن الخطاب القرآني عن الأمور والوقائع لن يكون ذا أثر إلا حينما يكون مستمداً من معارف السامعين ومتسقاً معها، وهذا يعني أن ألفاظ القرآن لم تكن غريبة على السامعين، وما دامت هذه الألفاظ معروفة فلا بد أن تكون على الأقل دليلاً على وجود الأفكار التي عبرت عنها.

وهكذا فيمكن القول إن المصدر القرآني كمصدر تاريخي هو المصدر الأساسي والصحيح لفهم عقائد عرب قبل الإسلام، أما ما دونه من المصادر فيمكن الاعتماد عليها من خلال الإطار التاريخي القرآني، الذي يمكن من خلاله معرفة المنتحل منها، ويمكن معرفة مدلولاتها الخفية والغامضة والمضطربة، ويمكن من خلاله أيضاً جمع بعض المعتقدات التي تبدو متناقضة في الظاهر. حيث إن الاعتماد على المصادر الأخرى كالروايات التاريخية فقط قد جعل دراسة عقائد عرب قبل الإسلام جمعاً لوقائع متناثرة تفتقر إلى المنهجية والتماسك، أو أظهر اضطراباً بين الاعتقاد بوجود الأنبياء على رأسهم إبراهيم عليه السلام عند العرب كما ورد في القرآن الكريم والروايات الإخبارية تارةً، وبين وضعية الدين تارةً أخرى، أي الاضطراب بين نظرية الوحي ونظرية التطور، الأمر الذي أدى إلى انتقاء بعض الباحثين ما يحلو لهم من بعض هذه المصادر لتدعيم نظريتهم اللادينية، فيقبلون ما يشاؤن ويرفضون.

ومن هنا تأتي أهمية الآيات المكية الأولى بشكل خاص، حيث تعطي صورة دقيقة لما وعاه المستمعون منها، خصوصاً ذكر لفظ الجلالة (الله) عز وجل، وأوائل أسمائه وصفاته الواردة فيها، حيث تعكس ما فهمه هؤلاء عنه عز وجل. صحيح أنه لا يمكن وضع قائمة دقيقة لترتيب السور القرآنية، لكن في ظل وجود بعض الروايات الصحيحة ومحتوى بعض السور يمكن تمييز ما نزل من أوائل السور وبدايات الآيات حسب النزول، والبدايات تعد أهم

جزء في الترتيب، على اعتبار معرفة بدء الألفاظ والمعاني المهمة التي تلقاها عرب قبل الإسلام.

يأتي بعد ذلك دور "التفسير الموضوعي" للآيات المكية للخروج بصورة تضم كل ما ورد في اعتقاد العرب، وذلك عن طريق جمع الآيات ذات الموضوع الواحد ضمن مركب نظري واحد، للوصول إلى صورة متكاملة لما عليه اعتقاد العرب، على النحو الذي واعاه المتلقون مباشرة حيث كانوا يعون خلفية ما يلقى عليهم. وذلك دون تفسير الآية مستقلة عن غيرها من الآيات ذات الموضوع الواحد، هذا النوع من التفسير الذي ذهب إليه بعض المفسرين، مما أدى إلى الوصف الخاطئ لما كانوا عليه اعتقاد العرب قبل الإسلام، مستندين على المأثور من الروايات على علاتها.

وهكذا يمكن طرح ديانة العرب قبل الإسلام في إطارها التاريخي، لمعرفة أصولها الدينية، وعلاقتها بالإسلام.

أصل ديانة العرب قبل الإسلام

إن عرب قبل الإسلام كانوا يرون أن ما هم عليه من اعتقاد يعود إلى ديانة تتصل بالله عز وجل، فقد ذكر القرآن حكاية عنهم أقوالهم الآتية ﴿.. وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا.. ﴾ (الأعراف:28)، ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.. ﴾ (سبأ:8)، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ .. ﴾ (الأنعام:148)، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف:20)، يتبين من هذه الآيات أن عرب قبل الإسلام الذين وصفوا بالوثنيين كانوا يعتقدون بدين يتصل بالله عز وجل.

بل يظهر أن طبيعة هذه الديانة ترتبط بالوحي، فهم يعتقدون بنزول الرسالات من السماء، ومجيء الآيات والنُّذر من الله سبحانه، وذلك واضح في قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ (ص:9)، ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:3)، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ (فاطر:42). وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ (طه:133)، "ولقد ردت عليهم الآية (الأخيرة) متسائلة عما إذا لم يكفهم ما يرونه من

تطابق وتوافق بين القرآن الذي يتلى عليهم وما في الكتب المنزلة الأولى من الله على رسله السابقين[3]". وهذا الرد ينطوي على كونهم لا ينكرون الله تعالى وعادته في إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم من جهة، ولا يجهلون أن ما في أيدي أهل الكتاب هو من ذلك من جهة أخرى، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: 197)، وهذا يعني أنهم كانوا يثقون في علم أهل الكتاب وعلماء بني إسرائيل، ومما يزيد الأمر تأكيداً تمني العرب لو جاءهم ما جاء الأمم السابقة من ذكر الله وكتبه لآمنوا وكانوا عبادًا مخلصين لله وحده، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ، لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ، لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ المخْلَصِينَ، فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الصافات:168- 170).

وهناك إشارات قرآنية توحي بأن عرب قبل الإسلام ينتمون إلى دين سماوي[4]، منها قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:3)، فوصف سامعي القرآن بأنهم "يعلمون" ينطوي على صورة لما كان عليه المخاطبون العرب أو زعماؤهم على الأقل من الفهم والإدراك، لذا كان سؤال التعجب في الآية: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (المؤمنون:68، 69).

إن القول أن العرب لم تأتهم رسالة من قبل استدلالاً بقوله تعالى: ﴿.. لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (السجدة:3)، يفسره البغوي في روايته عن ابن عباس أنها تعني الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام[5]، ويرى الطبري أن لفظ "قوم" في الآية تعني قوم قريش الذين لم يأتهم رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم[6]، وهذا القول أكثر وجاهة، حيث إن تاريخ قريش لا يرتقي إلى أكثر من بضع مائة إلى حين نزول القرآن.

ويمكن القول بعد ذلك أن الدين الذي كان يعتقد به عرب قبل الإسلام يعود في أصله لإبراهيم عليه السلام، وهو دين "الحنفية"، يقول أبو عبيدة : "من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين

---

[3] دروزة محمد عزة، التفسير الحديث، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1421هـ)، ج 3، ص 220.

[4] سيأتي ذكر هذه الآيات لاحقاً.

[5] ينظر: الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق خالد العك، مروان سوار، (بيروت، دار المعرفة، ط 2، 1407هـ 1987م)، ج 3، ص 497.

[6] ينظر: الطبري محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر، 1405هـ)، ج 21، ص 89.

إبراهيم ...[7]". وقد ذُكر أن أحد الأحناف (وهو وصف أطلقه الإخباريون على من ظلوا متمسكين بالحنفية) قال لقريش: "يا معشر قريش، والذي نفسي بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري..[8]"، وقد ورد في السيرة النبوية أن قريش اجتمعوا يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، فانتحى جانبا أربعة منهم، وهم ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل ثم قالوا: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم .. يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم[9].

إن هناك اتفاقاً تاماً في الكتب اللغوية والروايات التاريخية أن معنى "الحنيف" في مفهوم العرب الجاهليين، هو الإنسان الذي نبذ عبادة الأصنام والأوثان، وسائر العبادات، واتبع ملة إبراهيم وسنته[10]، وذكرت هذه المصادر أسماء مجموعة كبيرة من هؤلاء الحنفاء أمية بن أبي الصلت، ذاكرة أنه ذكر في شعره إبراهيم وإسماعيل والحنيفية وحرم الخمر، وشك في الأوثان[11]. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صدقه فيما قاله من شعر، فيما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق أمية في قوله:

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر الأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، صدق وهذه صفة حملة العرش[12]. وقد ورد في شعره قوله في الحنيفية:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور[13]

---

7 لسان العرب، ابن منظور، (دار المعارف)، ج 2، ص 1026.

8 ابن كثير الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1407 هـ -1986 م)، ج 2، ص 245.

9 ابن هشام أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، (دار ابن كثير)، 1/ 140.

10 الملل والنحل، ج 1، ص 210

11 الأصبهاني أبو الفرج علي بن الحسن، الأغاني، (دار الكتب) ج 4، ص 120.

12 السابق، ج 4، ص 128.

13 شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، قدم له وشرح حواشيه، سيف الدين الكاتب، أحمد عصام الكاتب، (لبنان، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة)، ص 47.

وقوله في الله عز وجل:

إن الأنام رعايا الله كلهم   هو السلطيط فوق الأرض مستطر
وليس يبقى لوجه الله مُختلق   إلا السماء وإلا الأرض والكَفَر[14]

وقوله:

إله العالمين وكل أرض   ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتني سبعا شداداً   بلا عمد يرين ولا حبال
وسـواها وزينها بنور   من الشمس المضيئة الهلال
ومن شهب تلألأت في دجاها   مـراميها أشد من النصال
وشق الأرض فأنجبت عيوناً   وأنهارا من العذب الزلال
وبارك في نواحيها وزكي بها   ما كان من حرث ومال[15]

وقوله في وصف الملائكة:

ملائكة لا يفترون عبادة   كروبية منهم ركوع وسجد
فساجدهم لا يرفع الدهر   رأسه يعظم رباً فوق ويمدَّد
وراكعهم يحنو له الدهر خاشـ   عاً يردد آلاء الإله ويحمد
ومنهم مُلفٍّ في الجناحين رأسه   يكاد لذكرى ربه يتفصّد[16]

وقوله في البعث والحساب:

باتت همومي تسري طوارقها   أكف عيني والدمع سابقها
مما أتاني من اليقين ولم   أوت برأة يقصي ناطقها
أم من تلظي عليه واقدة النار   محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التي وعد الأبرار   مصفوفة نمارقها
لا يستوي المنزلان ولا الأعمال   لا تستوي طرائقها
هما فريقان: فرقة تدخل الجنة   حفت بهم حدائقها

14 السابق، ص 40.
15 السابق، ص 61، 62.
16 السابق، ص 35.

وفرقة منهم أدخلت النار   فساءتهم مرافقها[17]

وقوله في قصة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام في الذبح والفداء:

ابني إني نذرتك لله شحيصا   فاصبر فدا لك خالي

فأجاب الغلام أن قال فيه   كل شئ لله غير انتحال

فاقض ما قد نذرته لله واكفف   عن دمي أن يمسسه سربالي

وبينما يخلع السراويل عنه   فكه ربه بكبش حلال[18]

وفي صحيح مسلم عن الرشيد بن سويد قال: ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ فقلت نعم: قال هيه، فأنشدته بيتاً، فقال هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال، هيه، حتى أنشدته مائة بيت، فقال: "كاد ليسلم في شعره[19]". وكان يحاور أبا سفيان ويقول له: "والله يا أبا سفيان، لنبعثن ثم لنحاسبن، وليدخل فريق الجنة ، وفريق النار[20]. وقد أجمعت التفاسير أنه الذي نزل في قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ.. ﴾ (الأعراف: 175، 176)، وذلك حيث روي أنه آمن بالنبي، ثم غضب لقتل المشركين في غزوة بدر، فرجع إلى ما كان عليه، وقيل أنه كان يطمع في النبوة، فحسد الرسول عليه الصلاة والسلام وحقد عليه[21].

ويذكر أحد المؤرخين فيما نسب إلى أمية من شعر يقول: "وفي أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات ووصف ليوم القيامة والجنة والنار، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً، لما ورد عنها في القرآن الكريم، بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله والحديث النبوي قبل المبعث، فلا يمكن – بالطبع – أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن، لم يكن منزلاً يومئذ، وأما بعد السنة التاسعة الهجرية، فلا يمكن أن

---

[17] السابق: ص 53

[18] السابق، ص 64

[19] صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم (2255).

[20] ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص 209.

[21] ينظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، (الكتاب العربي، 1967م) ج 1، ص 121. وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص 122.

يكون قد اقتبس منه أيضاً، لأنه لم يكن حياً، فلم يشهد بقية الوحي، ولن يكون هذا الفرض مقبولاً في هذه الحال .. ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معاني القرآن وينسبها لنفسه، ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول الفاضحين له[22]". إن هذا التشابه الموجود في شعر أمية يعود إلى اعتقاد هؤلاء الأحناف بديانة إبراهيم عليه السلام، والتي جاء الإسلام امتداداً لها.

إن ما سبق يؤكده التذكير الدائم للقرآن بأن ملة إبراهيم عليه السلام التي يتبعها محمد عليه الصلاة والسلام تختلف عما عليه هؤلاء العرب الذين غيّروا وحرّفوا وبدّلوا، فأشركوا بالله، يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (67)، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: 95)، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 161)، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 120).

ويتضح من هذا أن الوحدانية التي كانت موجودة فيما قبل الإسلام، وظهرت في الشعر أو في المرويات التاريخية للحنفاء هي امتداد ديانة إبراهيم عليه السلام، حيث نصّ القرآن الكريم على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وأنهم ينتمون في عقيدتهم الدينية إلى إبراهيم عليه السلام. ولم تكن الوحدانية اتجاه أو حركة ناشئة كما يحلو للمستشرقين وبعض الباحثين المسلمين وصفها كإرهاص للدعوة الإسلامية أو الخلفية التي قامت عليها الدعوة. ويبطل كذلك القول: "إن الديانتين الساميتين التوحيديتين بانتشارهما في القبائل العربية كانتا من أوائل العوامل التي دفعت إلى تفسيخ الوثنية العربية لصالح عقيدة التوحيد وإلى إقناع العرب وخاصة عقلائهم وحكمائهم بسخف الإيمان بالتعددية الإلهية[23]".

لقد أخذ العرب بتعدد الأوثان، وقد أبقاهم على ما هم عليه ميل العامة لتجسيد الغيبيات من خلال الوسائط والرموز، فلم تكن وثنية العرب خالية من المضمون الفكري بل

---

22 جواد علي، المفصل، ج5، ص 384، 385.

23 خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، (القاهرة: دارسينا للنشر)، ص106.

كانت عقيدة فسر بها العرب المشركون دين الله عز وجل الذي ورثوه عن آبائهم[24]. وليس هذا التعدد كما ذهب إليه موسكاتي "نتيجة لحالة تشتت كانت تعيش فيها القبائل ولميلها الغالب إلى التفرق[25]"، فالتعدد هذا وجد في كل الأمم القديمة البدائية منها والمتحضرة مثل الإمبراطوريات الكبيرة والممالك.

الله عند عرب قبل الإسلام

إن من المهم هنا محاولة التوصل إلى الصورة التي رسمها القرآن لله عز وجل من خلال أوائل الآيات القرآنية في مكة، والتركيز على موضع لفظ الله عز وجل وأول صفاته الواردة في أوائل الآيات، وذلك من خلال مضمون السورة والمرجحات القوية من الأحاديث النبوية، حيث يمكن الخروج بالصورة والملامح الأساسية له سبحانه التي قدمها القرآن والتي كانت تتضمن ما هو مدرك لدى العرب، عن طريق التذكير أو التصحيح، يؤكد مونتجمري وات أهمية ذلك بقوله: "تعطي الآيات الأولى انطباعا بأنها موجهة لقوم يؤمنون بالله، وأن كان هذا الإيمان يشوبه الكثير من الإبهام والارتباك[26]".

إن الاعتماد على ترتيب نزول السور كما وردت عند رواة المسلمين تفضي إلى نتيجة غير منطقية، فالملاحظ في أغلب روايات المسلمين[27] في الترتيب بدء ظهور لفظ الجلالة الله في السورة السادسة، في آية سورة التكوير: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: 29)، والجدير بالذكر أن جميع ما ذكر في ترتيب السور إما روايات فيها ضعف أو غير متفق عليها[28].

---

24 سيتم ذكر عقيدة تجسد الغيبي عند العرب لاحقاً.

25 موسكاتي سبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب 1997م)، ص 176.

26 و. مونتجمري وات، محمد في مكة، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 2002م)، ص 83.

27 هناك ثلاثة روايات عند السيوطي، ينظر: السيوطي جلال الدين بن عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، (دار التراث) ص25 إلى 27، ورواية عند الزنجاني، ينظر: الزنجاني، تاريخ القرآن، (الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع) ص56، 57، رواية عند ابن نديم، ينظر: ابن النديم، الفهرست، (بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ط 1، 1416هـ 1996م) ص 40.

28 محمد محمد عبد الله إسماعيل، موقف القرآن من المشركين، (رسالة ماجستير قسم الشريعة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 1957م)، ص 85

ولقد افتقرت محاولات الغربيين في ترتيب السور إلى المصادر التاريخية[29]، حيث قامت على اجتهادات ومعايير تعرضت للنقد من قبل بعضهم البعض، فعلى سبيل المثال أن ذكر لفظ "الله" عز وجل كان يرد في منتصف العهد المكي الأول، ثم تحوّل بعد ذلك إلى لفظ "الرحمن"[30]، في مقابل ذلك هناك من حاول أن يثبت أن لفظ "الله" عز وجل لم يرد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في أول نبوته، وأن الترتيب الزمني لسور القرآن يدل على أن كان يعبر عنه بالرحمن في أول الأمر[31]!، وزعم آخر "أن أوائل ما نزل من القرآن ليس فيه إشارة إلى توحيد الله سبحانه[32]".

صحيح أنه لا يمكن وضع قائمة دقيقة لترتيب السور حسب النزول، ولكن في ظل المرجحات القوية من الأحاديث الصحيحة التي تؤكد أولية ترتيب النزول، والمعلومات المتوفرة والمبادئ العامة والإشارات يمكن إيضاح جوانب منها، ومنها معرفة ماهية اعتقاد عرب قبل الإسلام بالله عز وجل.

تضع جميع ترتيبات السور المروية سورة العلق أولى السور ترتيبا. والمتبادر أن ذلك بسبب كون الآيات الخمس الأولى منها هي أولى آيات القرآن نزولا على ما عليه الجمهور. وقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها في قصة الغار[33] ما يدل على كونها أولى الآيات القرآنية نزولا. كما أن مضمونها يلهم ترجيح هذه الأولية.

إن أول آية في القرآن، توجيه للمستمع أنها رسالة من الرب الذي عرف بصفة الخلق، وهو الله عند العرب كما أوضحت عدة آيات قرآنية أن العرب يعترفون أن لا خالق إلا الله عز وجل، ولقد أورد الرواة صفة الخلق لله عز وجل عند العرب قبل الإسلام في أيمانهم ودعائهم ورسائلهم وأدبهم وحفلت كتب التاريخ بهذه الأقوال والعبارات[34]، ومن خلال دراسة

---

29 ينظر: عبد الرحمن بدوي، الدفاع عن القرآن، (الدار العالمية للكتب والنشر، 1999م)، ص 127.

30 ينظر: السابق.

31 ينظر: رينيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1959م)، ص 133.

32 مونتجمري، محمد في مكة، ص139.

33 صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، (موسوعة الحديث الشريف)، ص1.

34 جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، (بيروت لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 2، 1408هـ، 1988م)، ص168.

34 صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، (موسوعة الحديث الشريف)، ص1.

أشعار عرب قبل الإسلام يقول أحد الباحثين: "ومما هو جدير بالملاحظة والاهتمام أن المشركين أنفسهم، على الرغم من اعتقادهم المتين في مقدرة الأوثان، لم يرد عن أحد منهم أنه عزا الخلق إلى صنم أو إلى الأصنام مجتمعة بل إنهم كانوا يقرون بأن الله هو الذي أنشأ الكون، وخلق الناس[35]". أما قوله سبحانه ﴿...وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ (العلق:3) "قال ابن عطية .. وربك الأكرم على جهة التأنيس كأنه يقول امضِ لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص[36]".

ومن المرجح أن تأتي سورة الفاتحة تالية لهذا المطلع فيمكن القول أنها ترتبط باستهلالها، فألحق طلب القراءة باسم ربك باسمه عز وجل "الله" في قوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة:1) -كونها آية في السبع المثاني عند الجمهور[37]-، وهو تأكيد وكشف لاسم هذا الرب الخالق حتى لا يكون مدعاة لأي تقول. هذه الدلالة الإشارية تؤكدها بعض الروايات والدلائل الأكثر وضوحا: فهناك رواية معزوة إلى ابن عباس ومجاهد[38] تذكر أن سورة الفاتحة هي أول ما نزل من القرآن. وهناك حديث مرسل أخرجه البيهقي والواحدي ووصف رجاله بالثقات عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن[39] . ولما كانت هناك أحاديث صحيحة منها حديث رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها تذكر أن مطلع سورة العلق هي أولى آيات القرآن نزولا، "فيمكن أن تحمل رواية أولية سورة الفاتحة على أنها أولى السور التامة نزولاً[40]"، وعلق البيهقي على أولية نزولها فقال: "إن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت أقرأ والمدثر[41]"،

ص 191.

[35] عاطف محمد مصطفى كنعان، الإنسان في الشعر الجاهلي، (رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية-كلية الدراسات العليا-قسم اللغة العربية وآدابها، 1997م)، ص240.

[36] ينظر: ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، مجموع فتاوى ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، (مكتبة ابن تيمية)، ج 16، ص 296.

[37] دروزة، التفسير الحديث، ج 1، ص 289.

[38] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 69.

[39] السابق، 70، 71.

[40] دروزة، التفسير الحديث، ج1، ص 17.

[41] ينظر: السيوطي، الإتقان، ص71.

وقال الطيبي في الكشاف: "ذهب أكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب[42]"، وقد ورد في ترتيب نزول السور رواية لأبي الفضل جعفر بن محمد القرشي عن علي بن أبي طالب بدأت بالفاتحة ثم العلق[43]، وهي هنا مقدمة على سورة العلق لكن المرجح كما سبق أولية العلق. ومضمون سورة الفاتحة يحمل عناوين الدعوة والرسالة كمقدمة لها، ويؤكد أسبقيتها أيضا، أن الصلاة كانت تمارس منذ بدء الدعوة "ولم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة[44]".

وورد هنا لفظ الجلالة لأول مرة في البسملة والآية التي تليها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة:1، 2)، (هذا في حالة عدم استهلال مطلع سورة العلق بالبسملة في البدء)، وأهمية ذكر هذا الاسم في أول سورة تامة نزلت من القرآن، كما ذكر ألا يكون مدعاة لأي تقول، وكشف عن الموحي بالرسالة سبحانه وتعالى.

وقد تضمنت البسملة -كونها أول آية في السورة- اسمين لله عز وجل هما الرحمن والرحيم. وتكرر هذين الاسمين ثانية في نفس السورة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة:3). ثم تكرر في مفتتح كل سورة بعد ذلك، إن اسم الرحيم صفة لله عز وجل مثله مثل باقي الصفات التي تناولها القرآن، وإن كان وضعها في البسملة وبعد اسم الرحمن له دلالة خاصة.

لقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قريش كونها أول من تلقت الوحي لا تعرف أو لا تؤمن بلفظ "الرحمن" كدلالة على "الله" سبحانه[45]، لكن قراءة لبعض الآيات التي جاءت

---

[42] ينظر: السابق، ص70

[43] آرثر جيفري، عبد الله اسماعيل الصاوي، مقدمتان في علوم القرآن، مراجعة عبد الله اسماعيل الصاوي، (مصر، مكتبة الخانجي، ط 2، 1954م) ص13-15.

[44] ينظر: السيوطي، الإتقان، ص30.

[45] لقد اضطرب ابن كثير في مسألة اعتقاد العرب بالرحمن، فهو تارة يقول: "وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياًّ مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى.." (الإسراء:11). وقال كفار قريش يوم الحديبية: لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم". صحيح مختصر تفسير ابن كثير، ج 1، ص32، وفي تفسيره للآية يذكر ابن كثير: "يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن (الآية)..، وقد روى مكحول وابن عباس أن رجلا من المشركين سمع النبي يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحدا، وهو يدع اثنين فأنزل الله هذه الآية". السابق، ج 2، ص 1176. وفي تفسيره للآية "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً" (الفرقان:60) يقول ابن كثير: "أي لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن". السابق، ج 2، ص 1284. وفي تفسيره للآية "كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ" (الرعد:30) يقول: "أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون

حكاية على لسان عرب قبل الإسلام تبين عكس ما ذكرته الروايات، فقريش ذكرت اسم الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف:20)، والنصارى العرب قالوا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء:26)، وجاء على لسان أصحاب القرية في سورة يس قولهم للمرسلين: ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ (يس:15). وهذا يؤكد أن العرب قبل الإسلام كانت تطلق على الله اسم الرحمن، وأن الرحمن لم يكن إلهاً مختلفاً عنه كما زعم بعض اللادينين بقوله: "أن هناك معبود يمني قح كان يسمى الرحمن، غير المعبود الشمالي الذي كان يسمى إل أو الله[46]".

وأكد بعض المؤرخين صلة هذا الاسم بالله عز وجل عند العرب في قوله: "وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن، ولا شك، باتصالهم باليمن وباليهود. ولعلهم استخدموا الكلمة في معنى الله[47]"، ويذكر في صدد ورود اسم الرحمن في شعر ما قبل الإسلام: "إن ذلك يعني أن قوما من الجاهليين كانوا يدينون بعبادة الرحمن. ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن[48]".

وهكذا فإن قريشاً كانت تعرف الله باسمه الرحمن، وهذا من ميراثها الديني من إبراهيم عليه السلام وكذلك العرب، فقد ورد ذكر اسم الرحمن حكاية عن إبراهيم عليه السلام في الآيات ﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياًّ، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً﴾ (الأنبياء:45). وقد ذكر هذا الاسم في القرآن على لسان بعض الأنبياء مثل هارون وسليمان عليهما السلام، والمؤمنين السابقين

بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم". السابق، ج 2، ص 935. لكنه يأتي بعكس ذلك الرأي في تفسيره للآية "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً" (الفرقان:60) "والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن" السابق، 1/ 32، ويقول في قوله "أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا" أي "لمجرد قولك" السابق، ج 2، ص 1284.

46 سيد محمود القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، (القاهرة: مدبولي الصغير، ط 1، 1416هـ 1996م)، ص121.

47 جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (ط2 جامعة بغداد)، ج 6، ص 37، 38.

48 السابق، ج 6، ص 38، 39.

على الإسلام كمريم ومؤمن يس. وهذا يؤكد أصالة هذا الاسم في المنطقة العربية، وأن عبادته ليست كما يرى بعض المستشرقين "ظهرت بين الجاهليين بتأثير اليهودية والنصرانية بينهم[49]".

وقد وردت في سورة الفاتحة صفة لله عز وجل وهي "رَبِّ العَالَمِينَ"، ويأتي هنا تأكيد لاسم الله عز وجل عند العرب وصفته عند غيرهم، حيث تعددت الأرباب بين الأقوام والشعوب، كل يؤله رباً له أو أكثر، لكن رب العالمين ظل في معتقداتهم دلالة على القوة العظمى العاقلة الخالقة المدبرة الرازقة المحيية المميتة، والذي لم يختلف عليه مهما اختلف اسمه بينهم. فهو الله أو إيل عند الساميين، و"أوم" في الهند[50]، و"ذيوس" في اللاتينية واليونانية[51]، وهذه البداية تدحض قول بعض المستشرقين إن الله هو اسم صنم كان بمكة، أو أنه إله أهل مكة، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادلته أهل مكة من إقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون[52].

وهكذا حملت سورة الفاتحة ثاني سورة نزولاً ما يعتقده هؤلاء العرب في الله سبحانه، حيث خوطبوا باسم الله الذي يعتقدون به وباسمه الرحمن وصفته الرحيم وأنه رب العالمين.

لم يتناول القرآن الكريم مسألة إثبات وجود الله سبحانه، وإنما تعرض لذاته باعتبار وجوده أمراً معروفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعروفاً أيضا لأولئك الذين يتلقون الرسالة[53]، فقد كانوا يعتقدون أن الله عز وجل خلقهم وسواهم، ويعتقدون بشمول قدرته وكونه المتصرف المطلق في كل شيء، وأنه جعل لهم ما في السماء والأرض مسخر لهم. يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف:87)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان:25)، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ... وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت:61- 63)، ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ

---

[49] السابق، ج 6، ص 40.

[50] البيروني أبو ريحان، تحقيق ما للهند، (حيدر آباد الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1377هـ، .1958م)، ص 135.

[51] هـ.ج. روز، الديانة اليونانية القديمة، ترجمة رمزي عبده جرجس، (مصر، دار النهضة، 1965م)، ص151.

[52] ينظر: جواد علي، المفصل، ج 6، ص 24.

[53] مونتجمري وات، محمد في مكة، ص 139.

أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون:84- 89)، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (يونس:31)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ (الزخرف:9).

وآخر آية تدل على أنهم لم يكونوا يجهلون صفات الخالق مثل كونه عزيزاً عليماً. وكانوا يعتقدون بأن الله هو المعاذ الأعظم، والمؤثر الأكبر، والموئل في كل أمر، ويلجئون إليه، ويجأرون بالاستغاثة به حينما تحدق بهم الأخطار، ويمسهم الضر، ثم لا يتورعون عن العودة إلى شركهم بعد أن يكشف عنهم الضر ويبعد عنهم الخطر، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:63، 64)، ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ (الفرقان:77)، يقول دروزة "ومما يتبادر لنا أن جملة [لولا دعائكم] هي بسبيل الإشارة إلى اعتراف المشركين بالله الخالق البارئ رب الأكوان ودعائهم إياه وحده حينما يصيبهم الضر مما حكته آيات عديدة[54]".

لقد كان شرك العرب اعتقاد بأن هناك شركاء لله في الربوبية عزوا إليها بعضاً من صفات الله وأسمائه، وشاركوه في التدبير والحكم والتشريع وغير ذلك من لوازم الربوبية، ومن ثم عبدوها ودعوها تقرباً لله مع عبادتهم لله، لذا سماهم الله "مشركين"، وهذا الشرك ليس في صفة الخلق لاتفاق المشركين بأن الخلق لله وحده كما سبق القول[55]،حيث ظل الخالق الواحد

---

54 دروزة، التفسير الحديث، ج 3، ص 105.

55 لقد نفي ابن تيمية أن هناك تعدد في الربوبية، وأن الشرك كان فقط في الألوهية، حتى ذهب في تعريفه لتوحيد الربوبية أنه "اعتقاد أن الله وحده خلق العالم" درء تعارض العقل والنقل، ص130، وسار على ذلك كثير من علماء السلف في تعريفهم للربوبية، يقول أحدهم: "الرب سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا" تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، هداية المريد لتحصيل معاني كتاب التوحيد المفيد، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي 1414هـ، 1993م)، ص 9.

الله سبحانه بالنسبة للأرباب التي ألهت معه أو دونه بمنزلة الرب الأعلى، يقول الله تعالى: أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ (يوسف:39)، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباًّ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:164)، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ.. ﴾ (التوبة:31). وسيأتي بعد قليل سبب هذا الشرك من خلال اعتقاد عرب قبل الإسلام بالملائكة.

ولقد كان هُبَل أو هُبَعْل[56] أو بَعْل[57] معبود قريش الأكبر عبارة عن صفة مجسدة للإيجاد والخصب للرب الأعلى أو الله في اعتقاد المشركين، نصب كرمز لهذه الصفة، للاستسقاء[58] والاستنصار، فقد نادت قريش بعد أعقاب غزوة أحد "أعلُ هبل[59]" وهو يعني أنه كبير آلهتها، وكما ورد عند أهل الأخبار"كان هبل من أعظم أصنام قريش[60]"، والدليل على كون هبل رمزاً لصفة مجسدة من صفات الله سبحانه وليس إلها مقصودا في ذاته، وأنه لا يزيد أمره عن كونه رمزاً ديني مجسداً للإله الغيبي ما تشير إليه الروايات في وصفه "كانت يده اليمنى مكسورة، فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب[61]"، ويؤكد هذا الترميز الديني عن طريق الوثن باحث في الأساطير العربية قبل الإسلام "إن الأساطير التي نسجها (العربي) حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقدا أنه خالقه أو خالق الكائنات، لأنه تارة يستقسم عند الوثن، وتارة أخرى يسبه ويشتمه، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة[62]". فجاءت

[56] مؤلفات جرجي زيدان الكاملة، (بيروت، دار الجيل، ط 2، 1415هـ 1994م)، ج 12، ص 188.

[57] وقد ورد في كتب اللغة أن "بعل الشيء: ربه ومالكه" لسان العرب، ج 1، ص 316، قاموس المحيط، ج 3، ص335. وهكذا في باقي اللهجات السامية يعني "مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية.. ولما كانت لفظة بعل تعني الرب والصاحب، صار اسم الموضع يرد بعد (بعل)، فيقال: بعل صور، وبعل لبنان، وبعل غمدان. أما إذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب إليها بعدها، فتعني عندئذ رب وإله" جواد علي، المفصل، ج 6، ص 25.

[58] ورد لفظ بعل في النقوش الدينية القديمة بمعنى رب السموات الحاملة للمطر. موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ص338. فالكلمة في أصلها لا تحمل صيغة وثنية لذلك ورد "عند بعض المفسرين وأصحاب المعاجم أن كلمة بعل تطلق على كل الأراضي المزروعة التي لا تسقى. واستعملت كلمة بعل في الإسلام لتدل على أرض لا تسقى، أي لا تسقى بالواسطة... وقد ربطت كتب الفقه وكتب الخراج كلمة بعل بمعنى أرض مزروع لا تسقى، وخاصة فيما يرتبط بضريبة العشور التي تفرض على الإنتاج الزراعي". خالد العسيلي، دراسات في تاريخ العرب، ص 300

[59] سيرة ابن هشام، 93/3.

[60] أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية 1323هـ 1924م)، ص 27.

[61] الأزرقي، أخبار مكة، (ط3 دار الثقافة بيروت لبنان 1399هـ 1979م)، 119/1. الكلبي، الأصنام، ص 28.

[62] محمد عبد المعين خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937م)، ص 107.

الرسل لتندد بما أحدث الناس، كقول إلياس لقومه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ[63]، اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الصافات:125، 126).

الملائكة عند عرب قبل الإسلام

عرف العرب في الجاهلية الملائكة، فكلمة ملك وملائكة "مما كان مستعملا في اللسان العربي قبل نزول القرآن، ومما كان مفهوم الدلالة عند العرب[64]". وكان القرآن واضحاً في أنه يخبر عن قوى ومخلوقات يعترف السامعون بوجودها وصفاتها، بما يقارب ما يقرره القرآن عنها، بقطع النظر عن عقائهم الدينية فيها.

يورد القرآن أن هناك اعتقاداً عند العرب بأن الرسل الذين يبعثهم الله لمخاطبة الناس عامة في أمور الدين إنما هم من الملائكة، وقد يكون تعميم المعنى اللغوي لاسم "ملك" كان من ضمن عوامل هذا الاعتقاد، حيث إن كلمة الملك تعني الرسول، كما قال تعالى: ﴿.. جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً... ﴾ (فاطر:1)، وقال: ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ (المرسلات:1) ، وقد ذهب "أكثر المفسرين على أن الاسم مشتق من الألوكة بمعنى الرسالة وأن الكلمة تعني الرسل[65]".

فقد كان العرب يفترضون أن يكون الرسول من طبيعة غير طبيعة البشر، ومن قوة ومواهب فوق قوى البشر ومواهبهم، وكان ذلك سببًا من أسباب وقوفهم من النبي صلى الله عليه وسلم موقف المكذب المرتاب، يقول الله تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (الإسراء:90- 94)، ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ (الفرقان:7)، ﴿.. أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ... ﴾ (هود:12)، ﴿.. أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف:53)، ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الحجر:7). وفي رد القرآن على اعتقاد قريش ما

[63] ويجدر التنويه هنا أن ذكر الآية لفظ الخلق في "أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ" تعني الصنع والتقدير وليس الإيجاد من العدم لقوله تعالى "وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي" (المائدة:110).

[64] دروزة، التفسير الحديث، ج 1، ص 465.

[65] السابق: ج 1، ص 464.

يشير إلى الاعتقاد، يقول الله تعالى: ﴿..وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ... ﴾ (الأنعام:50)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء:7، 8)، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً .. ﴾ (الرعد:38). وهذا الاعتقاد لم يقتصر على معاصري الرسول عليه الصلاة والسلام، بل وردت آيات تشير إلى وجود هذا الاعتقاد عند قوم نوح وعاد وثمود[66]، وأن هذا الاعتقاد متوارث عمن سبقهم أيضاً.

يتبين من تلك الآيات تكرار حكاية طلب استنزال الملائكة، في صدد الدعوة، تبليغاً أو تأييداً، وكون الرسل خالدين لا يموتون، ولا يأكلون الطعام ولا يمشون في الأسواق، ولا يتزوجون وليست لديهم ذرية، حيث يدل هذا على الجزء الكبير الذي كان يشغله الملائكة في أذهان العرب قبل الإسلام، واعتقادهم بوجودهم، وصلتهم واختصاصهم بالله، وكونهم منفذي أوامره وأصحاب الحظوة لديه. حيث إن استنزال ملك يؤيد النبي صلى الله عليه وسلم ويكون معه نذيرا يؤكد اعتقاد المشركين بوجود صلة بين الملائكة وبين الله تعالى وحظوتهم لديه وقيامهم بخدمته سبحانه وتعالى.

هذا الاعتقاد يبدو أنه قد تولد من تفسيرات دينية للآباء والكهنة والخرافات التي ثقلت الذهن الديني في تلك الفترات، والتي دارت حول نزول الملائكة على إبراهيم والأنبياء عليهم السلام، وحول نزول الملكين هاروت وماروت في بابل ﴿.. وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ.. ﴾ (البقرة:102)، وما قيل في جمال الملائكة ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف:31).

ولقد زعم العرب أن الملائكة بنات، وأن لها صلة أبوية بالله، قال الله تعالى: ﴿..وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام:100)، ﴿ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الصافات:151، 152)، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً... ﴾ (الزخرف:19)، ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً... ﴾ (الإسراء:40)، ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (الصافت:149،150).

[66] (المؤمنون: 24)، (هود: 31)، (فصلت: 14).

وكان من نتيجة التأويل الخاطيء لأدوار الملائكة كرسل للبشرية، والفهم الفاسد لنسبتها لله سبحانه أن اعتقد العرب بربوبيتها ثم أصبغوا عليها الألوهية فعبدوها من دون الله، يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الملاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 80)، ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ:40).

وبما أن الملائكة لا يظهرون للبشر في كل زمان وكل مكان، اتخذ العرب لهم رموزاً حتى يمكن تعظيمهم والتقرب إليهم وعبادتهم، وانقسم هذا الرمز إلى نوعين: رمز أرضي، ورمز سماوي.

إن الرمز الأضي يعكس الرمز الحاضر الذي لا يغيب، ويمكن أن يتعدد الرمز للمرموز الواحد، وتتعدد أشكاله وطبيعته، ويمكن أن يستبدل، ويسمى تمثالاً أو صنماً أو وثناً[67]. إن دلالة هذه الأسماء تشير إلى أنها "لا تدل على إله إنما تدل على رمز[68]"، وقد شرح ميرسيا إلياد دور الرمز الديني في الأديان التي تسمّى وثنية بقوله: "يمكن للمقدس أن يظهر نفسه في حجارة أو أشجار،...إنهما ليسا موضع عبادة فعلاً لأنهما تجليان، ولأنهما يظهران شيئا ما ليس هو لا حجر ولا شجر وإنما الكائن المطلق[69]"، وهذا ما أكده ابن كثير في تفسيره حيث

[67] أما ما ورد عن الكائنات الطبيعية والحيوانية في الأخبار ففي الغالب إن عبدت لكونها لها علاقة بالآلهة على سبيل التبرك، ولا يدل إطلاقا على أن النوع بأسره هو الذي كان معبودا، كما أنه لا يدل أن الأمر متعلق بنظام طوطمي. يقول أحد الباحثين: "كانت العرب تقدس الحيوان وتعبده كما يقدسه ويعبده أهل الطوتم، لكن غرضهم في تقديس الحيوان وعبادته يختلف عما يقصد أهل الطوتم، إذ كان أهل الطوتم يرمون بعبادة الحيوان إلى إجلال الآباء وإكرامهم، فكانوا مدينين للطوتم بحياتهم ومماتهم، لكن العرب لم تعتقد أن حياتها هبة من هبات إله حيواني، ولا رأوا صلة رحم بينهم وبين الحيوان الطوتمي كما هي عقيدة المتوحشين، بل كان العربي يقدس الحيوان ويعبده لتحصل له البركة، وشكرا لاستفادته منه على مجرى عادة الرعاة جميعا، أما الأصنام يغوث ويعوق ونسر ويعبوب ويربوع، فقد بينا أنها لم تعبد في بادية الحجاز بل ما وجد أثر لها في حياة العرب الاجتماعية، إن هي إلا أسماء سموها" (محمد عبد المعيد خان الأساطير العربية قبل الإسلام ص83)، ويقول ديسو: "ليس هناك دليل قاطع على الطوتمية البدائية عند الساميين، وذلك لا ينبغي أن يكون موضع دهشة لأن الوثائق التي في متناولنا، مهما بلغت في القدم، فهي تنتمي إلى عهد بعيد كل البعد عن الطوتمية البدائية، والأستاذ نولدكه لا يعتقد في هذه الأسماء [أي أسماء الأعلام المكونة من أسماء حيوانات أو نباتات أو معادن] أي دليل يؤيد الطوتمية البدائية عند الساميين " (رينيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص91)، يقول جرجي زيدان: "أما تسمية العرب أولادها بكلب وقرد ونمر وأسد.. فذهب علماؤنا إلى أن العرب كانت إذا ولد لأحدهم بان ذكر سماه مما يراه أو يسمعه مما يتفأّل به، فإن رأى حجرا تأول فيه = الشدة والصلابة والبقاء والصبر، وأن رأى ذئبا تأول فيه طول العمر والوقاحة..." جرجي زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، (القاهرة: الهلال: ط3) ص62.

[68] مصطفي عبده، الوثنية والأديان، ط2. مكتبة مدبولي القاهرة 1999م، ص 16.

[69] ميرسيا إليادي، المقدس والمدنس، المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادي عباس، (دمشق، دار دمشق. ط1، 1988م)، ص17.

ذكر أن العرب: "عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صورة الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا[70]".

لقد اشتهرت عند عرب قبل الإسلام ثلاث إلهات سميت بـ "اللّات" و"العُزّى" و"مناة"، ومن الواضح من سياق سورة النجم في صدد ذكر تلك الأسماء أنها رموز للملائكة، فقد كشف السياق عن هذه الصلة بين هذه المعبودات الثلاثة وبين الملائكة عند المشركين، وقد استنكرت السورة نسبة الأصنام إلى الله سبحانه وتعالى بالبنوة وقد أشارت الآيات السابقة كما مر إلى اعتقادهم أن هذه البنوة تعود إلى الملائكة، وعن كون هذه المعبودات أسماء سمُّوها من تلقاء أنفسهم وآبائهم، ثم الهدف من هذه العبادة وهو الاستشفاع، ثم انتقل السياق إلى استنكار من تسمية الملائكة تسمية الأنثى، وأن شفاعتهن لا تغني شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى، إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَى، أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى، فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى، وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى، إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى، وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً﴾ (النجم:19- 28). ومما يوضح الصلة بين الملائكة وتلك الأوثان الرواية التاريخية الموضوعة، حيث زُعِم أن الرسول عليه الصلاة والسلام مدح اللات والعزو ومناة ووصفهن بالغرانيق العُلى، وأن شفاعتهن لتُرتجى، والغرنوق هو "اسم لطائر مائي أسود أو أبيض..طائر طويل القوائم[71]"، وهذا وصف أقرب للملائكة في الأذهان، لما جاء في وصف الملائكة بأنها ذات أجنحة في الرسالات السماوية، وفي هذه الرواية الموضوعة على ما فيها من تناقض في السياق القرآني للسورة التي تدعو إلى التوحيد، يبدو أن رواتها قصدوا هذا الربط بين الملائكة والأصنام، فكان المدح على سبيل مدح الملائكة.

---

[70] صحيح مختصر تفسير ابن كثير، (القاهرة: دار السلام، ط3، 2003م)، ج 3، ص 1551.

[71] لسان العرب، ج 5، ص 3249.

أما النوع الثاني من الرمز وهو الرمز السماوي الذي اتخذه العرب رمزاً للملائكة، فقد ظهر كثير من النقوس التاريخية[72] على أن آلهات العرب الثلاث "اللات والعزى ومناة" والتي توصف ببنات الله تشير إلى كوكب الزُّهرة، أو كوكب الصباح عند العرب، أو عشتار أو عثتر أو عشتروت حسب أسمائها عند الساميين، وتشير أغلبها أنها أنثى أو بنت الإله.

ويبدو أن اللات والعزى ومناة والتي هي أصنام رُمزت إلى الملائكة التي اعتبرها العرب بنات الله سبحانه وتعالى لم يتوقف أمرها على ذلك فقط، بل صعد بها العرب إلى السماء برمز أحد الكواكب أو النجوم، وحسب ما جاء في سياق سورة النجم، فربما يكون هذا النجم عند قريش هو الشعرى، وقد ذكرها الله في سورة النجم التي ذكر فيها آلهات العرب الثلاث في قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (النجم:49) وتلك إشارة على صلة فيما بينها. والشعرى كما جاء في التفاسير كوكب كان يعبد في الجاهلية[73]، و"في كتب الإخباريين (ذُكر أن) قريش عبدوا الشعرى[74]". ولقد ورد في الروايات التاريخية أن اللات والعزى ومناة المتمثلات بنجم الشعرى أن العرب كانوا ينسبون إليها السعادة والإخصاب وإيجاد نوع المولود والرزق والموت والحياة على أساس مطلع النجم، فقد ذكر أحد الباحثين في أساطير العرب ذلك "كانت للعزى علاقة بالنساء والزواج، وهذا ما نراه من عادات العرب الجاهلية، قال الألوسي: كانت المرأة من العرب إذا عسر عليها خاطب النكاح ... كانت تقول: [يا نكاح أبغي نكاح قبل الصباح]..أي قبل طلوع نجم الصباح"، و"قد مثلت مناة الموت عند العرب كما كانت تمثل الموت والقدر أيضا عند البابليين، وقد قالوا في خطابهم إلى مناتوا: [يا مناة يا إلهة القدر والموت][75]"، فربما جاءت الآيات في سورة النجم قبل ذكر نجم الشعرى رداً على هذه المعتقد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَنَّهُ خَلَقَ

---

[72] ينظر: ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص 124، 125، 35. ديتلف نيلسون، التاريخ العربي القديم، ص198. موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ص 333. محمد عبد المعين خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص121. جواد علي، المفصل، ج 6، ص 238

[73] صحيح مختصر تفسير ابن كثير، ج 3، ص 1739.

[74] جواد علي، المفصل، ج 6، ص 58.

[75] خان، الأساطير العربية، ص 129.

الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (النجم:43- 49).

إن ربط بنت الإله أو البنت المقدسة بنجم الزُّهرة يثير التساؤل حول تسمية السيدة فاطمة رضي الله عنها بـ "فاطمة الزهراء"، هذا الاسم الذي في حقيقته ليس له أصل في السنة والرويات التاريخية، ويبدو أنه أثر مجوسي من خلال شيعة الفرس.

وهكذا يتبين أن الملائكة عند العرب كانت تعبر عن عقيدة الألوهية، وقد ذكر ذلك الشهرستاني حول اتفاق الأديان والملل "أن للعالم قوة إلهية، وهي مدبرة لجميع ما في العالم، ... (وهي) عند العرب الملائكة[76]"، وهذا ما استنتجه أيضاً عبد الرحمن بدوي في قوله: "إن عقيدة الألوهية قبل الإسلام كانت خاصة بفكرة الملائكة[77]". هذه العقيدة هي التي وصف القرآن بها عرب قبل الإسلام بـ"المشركين" حيث كانوا يجمعون بين الاعتراف بالله كإله أعظم وبين عبادة الملائكة كبنات لله سبحانه ورسله وشفعاء، مع جعل رموزاً لها مادية تارة كالأوثان والأصنام وسماوية تارة أخرى كنجم أو كوكب، مما أظهر هذا الشرك في شكله الخارجي كعقائد متنوعة مختلطة ومتداخلة بعضها في بعض.

الأنبياء عند عرب قبل الإسلام

يمكن القول بأن هناك فرق في اعتقاد العرب بين الرسل والأنبياء من حيث الطبيعة، حيث إن الرسل هم ملائكة كما جاء حكاية عن العرب والأمم السابقة في النصوص القرآنية السابقة، والأنبياء هم بشر يقومون بتمثيلهم والنبأ عنهم، أو يجيء نذيراً معه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرا﴾ (الفرقان: 7).

إن كلمة نبي عربية لفظاً ومعنى، فهي عربية لفظاً لأن مادة النبأ والنبؤة أصيلة في اللغة. وعربية معنى؛ لأن معنى النبؤة الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى، وهو لا

---

[76] الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا. علي حسن فاعور، (بيروت لبنان: دار المعرفة، ط 6، 1417هـ، 1997م)، ج 1، ص 289.

[77] الدفاع عن القرآن، ص126.

يلتبس مع معاني آخرى كالعرافة والعيافة والكهانة خلافاً للغات الأخرى، ويقال أن العبريين قد استعاروا هذه الكلمة من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بهم، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار، يقول العقاد: "ومن علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا إلى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر، والأستاذ شميدت اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت في اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين[78]"، وهذا يدل على معرفة العرب بالأنبياء والنبوة.

لقد كان لإبراهيم عليه السلام مقاماً خاصاً وهو الأبوة عند العرب يأتي مما كان متواتراً من أن العدنانيين سكان الحجاز لهم صلة بنوة بإبراهيم عليه السلام من طريق إسماعيل، وإلى ذلك تشير الآية في قوله تعالى ﴿ ... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ.. ﴾ (الحج:78)[79] ، وتشير بعض الآيات إلى صلة إبراهيم بمكة، منها آية مكية في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً.. ﴾ (إبراهيم: 35)، وتشير الآية المدنية ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... ﴾ (البقرة:125) إلى وجود مقام للنبي إبراهيم عند الكعبة، وهكذا يتداول عرب قبل الإسلام نسبة الكعبة وتقاليد الحج لإبراهيم عليه السلام.

وفي كتب التفسير روايات كثيرة ومسهبة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مروية عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم وعلماء الأخبار في الصدر الإسلامي الأول، منها ما هو غير وارد في سفر التكوين، وفيها على كل حال دلالة على أن ذكرهما كان متداولاً بنطاق واسع في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة.

ويلاحظ أن ما ورد من قصص وأخبار متصلة بالأمم السابقة وأحداثها في القرآن لم يكن غريباً عن السامعين إجمالاً، يتضح هذا في الإشارات المقتضبة عن الأنبياء وأقوامهم في أوائل السور المكية الآيات: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى:18، 19)، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم:37). وفي نفس السورة إشارة أخرى لمعرفة هؤلاء بالرسل ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾

---

78 عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، (القاهرة: المؤتمر الإسلامي، ط 1، 1376هـ 1957م)، ص63.

79 دروزة، التفسير الحديث، ج 1، ص 520.

(النجم:56). و"هي أولى الإشارات إلى كتب الله الأولى ... وأسلوبها يمكن أن يدل على أن السامعين لا يجهلون أن هناك كتباً إلهية نزلت على أنبيائه ومنهم إبراهيم وموسى عليها السلام[80]"، ويبدو أن ذكر أسمائهما لأول مرة متصل خاصة بما كان لهذين النبيين من صورة مهمة في أذهان السامعين أكثر من غيرهما.

بل قد ورد في القرآن قصص وأسماء أنبياء ورجال صالحين ترتبط بالمنطقة العربية كقصص هود وصالح عليهما السلام مع قومهما عاد وثمود وقصص سبأ وحِكَم لقمان، ولم ترد هذه في أسفار التوراة والإنجيل، ويظهر من سياق الآيات المرتبطة بمصائر قوم عاد وثمود معرفة العرب بهما.

وقد اتسم القصص القرآني في بداية التنزيل بكونه "إشارات معدودة إلى أحوال السابقين، تهدد المشركين بذكر مصائر بعض المكذبين والطاغين، وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بذكر شيء من قصص المرسلين[81]"، يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى.. ﴾ (النازعات:15)، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد، إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ،..﴾ (الفجر:6، 10)، وغيرها، وهذا الأسلوب الاستفهامي الذي جاءت فيه هذه الآيات يلهم أن أخبار عاد وثمود وفرعون وآثارهم والعذاب الذي حل فيهم غير مجهولة عند سامعي القرآن.

ولقد وردت آيات واضحة المعنى في أنهم كانوا يعلمون مصائر الأقوام السابقة، وما حل فيها من تدمير رباني، بل شاهدوا آثارهم، الآيات: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ (طه:128)، ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت:38)، ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾ (السجدة:26)، ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ (الفرقان:40)، ﴿ وَإِنَّكُمْ

[80] السابق، ج 1، ص 521.

[81] محمد محمد عبد إسماعيل، موقف القرآن من المشركين، ص 293.

لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات:137، 138)، وفي سورة النجم قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ (النجم:56) والآية توكيد بأن الإنذار القرآني الذي يبلغه النبي عليه الصلاة والسلام هو من جنس النذر الأولى التي أرسلها الله على لسان رسله الأولين ولما كان السامعون والكفار منهم يعرفون خبر رسالات الرسل السابقين كانت الحجة قد قامت عليهم.

وتشير بعض الآيات إلى استشهاد أهل العلم وأهل الكتاب على صحة صلة القرآن بالله تعالى وصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي بذلك تشير إلى أن العرب كانوا يثقون في علم أهل الكتاب وعلماء بني إسرائيل واطلاعهم، وقد روي أنه "كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده[82]"، وفي ذلك دلالة على مكانة اليهود كونهم أهل علم وكتاب، الآيات:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف:10)، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ،.... أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء192، 197)، ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ (طه:133) "ولقد ردت عليهم الآية (الأخيرة) متسائلة عما إذا لم يكفهم ما يرونه من تطابق وتوافق بين القرآن الذي يتلى عليهم وما في الكتب المنزلة الأولى من الله على رسله السابقين. وهذا الرد ينطوي ....على كون الكفار لا ينكرون الله تعالى وعادته في إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم من جهة، ولا يجهلون أن ما في أيدي أهل الكتاب هو من ذلك من جهة[83]"، ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ (القصص:48) "أي إن ما جاء به موسى عليه السلام وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر يظاهر بعضه بعضا وإنا كافرون بكل منهما[84]".

[82] سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام موسوعة الحديث الشريف، ص 1422.

[83] دروزة، التفسير الحديث، ج 3، ص 221.

[84] السابق، ج 3، ص 320.

ومما يؤكد معرفة العرب بهذه القصص أن صيغة أعلام القصص مثل طالوت، وجالوت، ويونس.....الخ، قد جاءت في القرآن معربة، وعلى أوزان عربية من لغات غير عربية، ولم تكن فيها بالصيغة العربية الواردة حتماً، ومن المستبعد أن تكون قد عربت لأول مرة في القرآن، ومن المرجح أن تكون عربت وتداولت بأوزانها العربية قبل نزولها. وبهذا يصح أن يشملها ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:195) الذي جاء في معرض نزول القرآن لأنها جزء منه.

ومما يؤكد أيضاً تداول هذه القصص معربة قبل نزول القرآن ما تكرر من حكاية المشركين في القرآن في وصفهم بـ"أساطير الأولين" وإن النبي صلى الله عليه وسلم استكتبها وهي تملى عليه وإنه كان أناس يعينونه عليها وإنهم لو شاءوا لقالوا مثلها كما جاء في الآيات ﴿... إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام:25)، ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (القلم:15)[85] ، وهذه الآيات قرينة قوية وحاسمة على أن العرب كانوا يسمعون من مقصد القرآن ونذره وبشائره وتذكيراته ما كان اتصل علمه بهم وكان متداولا بينهم.

ويمكن إضافة إلى الآيات العديدة التي احتوت دلائل وقرائن على أن السامعين كانوا يعرفون أخبار الأمم والأنبياء التي تتلى عليهم في القرآن، ما أورده المفسرون من بيانات كثيرة في سياق كل قصة من القصص، مسهبة حيناً، ومقتضبة حيناً، معزوة إلى علماء الأخبار حيناً، وعلى غيرهم حيناً آخر مثل ابن عباس، ومقاتل، ومجاهد، والضحاك، والكلبي، وغيرهم. هذه البيانات قد احتوت تفاصيل وجزئيات حول القصص القرآني، ومن المرجح أنها مما كان يدور في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، وبعدها، وحولها.

وهذه الآيات وغيرها فيها دلالة قوية على أن العرب كانوا يعرفون أخبار الأنبياء ومعجزاتهم، حيث يمكن أن يقال إن حكمة الله اقتضت أن تكون القصص معروفة من قبل

---

85 إن كلمة أساطير لا تقتضي دائما أن تعتبر مرادفة لكلمة قصص خرافية كما هو من مفهوماتها، فإنها قد تفيد أيضا معنى المدونات لأنها مشتقة من سطر بمعنى كتب كما هو وراد في القرآن "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ "(القلم:1)، وآية "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" (الفرقان:5) تلهم أن هذه من المعاني المقصودة للكلمة. ومهما يكن من أمرها فإنها تعني على كل حال أنهم يسمعون أخبارا وقصصا وصلت إلى علمهم عن الأمم السابقة حقيقية كانت أو خرافية. (دروزة، التفسير الحديث 1/ 169)، فقد كانوا يرددون هذا القول بقصد تكذيب صلة الله بالنبي وصحة التنزيل القرآني والدعوة النبوية والحياة الأخروية.

السامعين جزئياً أو كلياً لتكون العبرة والعظة والإفحام أشد، لأن الناس يتأثرون بالأمثال التي يعرفونها، والأحداث التي يعلمون نبأها، مما يجعل العبرة والمثل قويين وملزمين، وبذلك تستهدف إقناع العرب بأن الرسالة المحمدية ليست بدعة جديدة وإنما هي نفس الدعوة التي دعا إليها الأنبياء السابقون وهذا يلهم أن العرب كانوا يعرفون ويعترفون بأن الله تعالى أرسل قبل النبي صلى الله عليه وسلم أنبياء، وهو ما حكته عنهم آيات عديدة.

ومن الجدير بالذكر الحديث أن بعض المفسرين احتجوا بآيات تشير إلى أن ما أوحاه الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم من هذه القصص هو من أنباء الغيب التي ما كان يعرفها هو ولا قومه من قبل، وهذه الآيات هي ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: 49)..وآية ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران:44) ..وآية ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: 102)، ولقد فسر البيضاوي أن قصد هذه الآيات هو عدم معرفة النبي صلى الله عليه وسلم وجميع قومه بجميع التفصيلات وأن هذا لا يمنع أن يكون عرفها بعضهم أو عرف بعضهم بعضها[86].

والذي يؤكد ما ذهب إليه البيضاوي من معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام بقصص الأنبياء، كونه من هذه البيئة التي ذكر معرفتها بهذه القصص، وهذا خلاف ما رآه المفسرون من حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم شيئا من القصص التي كان يوحي إليه بها قبل نزولها، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يعيش قبل نزول الوحي عليه في بيئة عربية تتناقل هذه القصص والأخبار العربية، ويلتقي عليه الصلاة والسلام بأهل الكتاب، وهناك روايات عديدة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتصل بهم ويسمع منهم ما في كتبهم، وقام عليه الصلاة والسلام ببعض الأسفار، فليس من المعقول أن يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف شيئا عن الأنبياء والرسل، يعلق دورزة على رأي المفسرين هذا بقوله: "إن ذلك آت من سوء فهم كنه وهدف الوحي بهذه القصص، وليس من تعارض قط

[86] ينظر: تفسير البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفات، (بيروت، دار الفكر، 1416هـ، 1996م)، ج 2، ص39، ج 3، ص 238.

بين وحي ما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه منها بالأسلوب الذي أوحيت به وبين ما يمكن ويصح أن يكون النبي قد عرفه منها قبل نزولها[87]".

والآيات التي احتج بها المفسرون هي تشير إلى قصة نوح ويوسف عليهما السلام، ولقد كان العرب يعرفون قصة نوح واتخذوا أصنام قومه التي ذكرها الله في سورة نوح أصناماً لهم، فلا يصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لم يعرفوا شيئاً منها، وقد ذكرت قصة نوح بتفصيل أو اقتضاب مرات كثيرة في السور التي نزلت قبل هذه الآيات، مثل سور ص والأعراف والقمر والشعراء، ولم يرد في هذه القصص وفي هذه السور مثل هذا التعليق والتقييد مما يجعل التأويل والتخريج سائغاً وصواباً.

وهناك إشكالية أخرى أن بعض ظاهر الآيات القرآنية قد يشير إلى عدم معرفة العرب بقصص الأنبياء عليهم السلام، وهو ما قد يناقض ما ذهبت إليه الآيات السابقة وفي هذا إشكال، لذلك ذهب بعض المفسرين إلى تأويلها، وهذه الآيات هي:

- الآية ﴿.. لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (السجدة:3)، ولقد روى البغوي عن ابن عباس في صدد هذه الآية أنها تعني الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام[88]. وقال الطبري كما مر سابقاً: إنها تعني قريشاً "أي ليس العرب" الذين لم يأتهم رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم[89].
- الآية ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ .. ﴾ (الأنعام155- 157) "فالمحكي المفروض هو عدم إطلاعهم ودراستهم وفهمهم هذه الأسفار مباشرة على اعتبار أن الهداية لا تتم إلا بذلك[90]".

[87] ينظر: دروزة، التفسير الحديث، 1/ 394، 395.

[88] البغوي، معالم التنزيل، ج 3، ص 497.

[89] ينظر، تفسير الطبري، ج21، ص 89.

[90] دروزة، التفسير الحديث، ج 4، ص 192.

- الآية ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:68)، ولقد تعددت تخريجات المفسرين لمدى هذه الآية، منها أنها بسبيل استنكار كفر الكافرين لأن ما جاءهم ليس بدعا وأنه قد جاء لآبائهم من قبل[91]. ومنها أنها بسبيل استنكار كفرهم لأن الله قد اختصهم دون آبائهم بنعمته فأرسل رسوله لهدايتهم[92].
- الآيات ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُون﴾ (يس:6)، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُون﴾ (السجدة:3)، ﴿... لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص:46). هذا في حين أنه جاء في سورة النمل هذه الآية: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (النمل:68)، وتكرر هذا في سورة المؤمنون ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:83). يقول دروزة: "في صدد الإشكال الوارد عليه يجوز أن يقال أن آيات سورة يس والسجدة والقصص قد قصدت الزمن القريب بينما آيتا سورتي النمل والمؤمنون قد قصدتا الزمن البعيد. وفي الزمن البعيد الذي كانوا يتداولون أخباره جيلاً بعد جيل أنبياء عديدون من جزيرة العرب أو حلوا فيها وقد ذكروا في القرآن، ويعتبرون آباء أولين للعرب الذين يسمعون القرآن مثل هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام[93]".

وهكذا يتبين اعتقاد الوثنيين بالأنبياء، وأن هناك في اعتقادهم فرق بين الرسل والأنبياء في طبيعة كل منهم، فالرسل من الملائكة، أما الأنبياء من البشر، ويؤكد اعتقادهم بالأنبياء، اتباعهم النبي إبراهيم عليه السلام، وانتسابهم إليه، والاعتقاد بأنبياء أهل الكتاب وثقتهم بهم، ومعرفتهم بأحوال الأمم السابقة التي أهلكت بسبب كفرها بالأنبياء عليهم السلام.

[91] ينظر: تفسير الطبري، ج 18، ص 41، والبغوي، معالم التنزيل، ج 3، ص319.

[92] ينظر: صحيح مختصر تفسير ابن كثير، ج 2، ص 1218.

[93] دروزة، التفسير الحديث، ج 5، ص 325، 326.

الشعائر عند عرب قبل الإسلام

إن طرق التقرب إلى الله سبحانه عند عرب قبل الإسلام احتفظت بالأصول الدينية السماوية والصفة العامة للشكل الأساسي لديانة إبراهيم عليه السلام، مع تحريف وجهتها تبعاً لما دخل عليها من إشراك الآلهة معه سبحانه، فقد حافظت الشعائر على كثير مما ترتبط به من مكان وزمان وصفة كالحج والزكاة والنذر والصلاة والصيام.

إن الحج عند العرب هو الذهاب إلى البيت المحرم (الكعبة) في مكة، الذي كانوا ينسبونه إلى الله عز وجل، كما هو مشار إليه في الآية ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (قريش:3)، تقرباً إليه سبحانه، ويقرر القرآن أن قدسية هذا البيت، وجعل حرمه آمناً حيث يُحرِّم فيه لا القتال ولا يسفك فيه الدماء، واتصاله بمناسك الحج، يرجع ذلك كله إلى إبراهيم عليه السلام، الآيات: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً .. ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. ﴾ (البقرة : 125-127) ، ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران 96،97). لذلك وضعت العرب علامات في حرم الكعبة تدل عليه مقام إبراهيم عليه السلام، حيث رأوا أثراً في حجر كبير لقدم إنسانية، ويعتقدون أنه الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم فيما كان يرفع قواعد البيت مع إسماعيل.

وترجع قداسة هذا البيت إلى آدم عليه السلام، فالقرآن يشير إلى أن إبراهيم وإسماعيل رفعا القواعد من البيت، أي أن البيت وُجد من قبلهما، وقد انتشر منذ آدم شكل هذا البيت المكعب كنموذج مقدس لدور العبادة، لذا كان يطلق على المعبد في اللاتينية (Templum) التي تعني لغةً موضعا مربعاً، فلا يمكن أن يكون هذا التوافق بين الكلمتين جاء عفواً. وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها ماكواريا يقول إدوارد جيبون "في كتابه اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها": وهذا يدل على عظمة هذه البلدة[94].

94 ينظر، محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، (القاهرة، دار الفكر العربي، ط 4، 1415هـ 1994م)، ص405.

ولقد عُرف الشهر الذي يحج فيه العرب باسم ذي الحجة، وكان أحد الأشهر الأربعة المحرّمة، أي التي يُحرّم فيها القتال، وهذه الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذي الحجة ومحرم وهي أشهر مرتبطة بالحج، وسلامة الحجيج، فحرمة هذه الأشهر تحمل معنى تحريم العدوان فيه لتكون هدنة مقدسة يستطيع الناس في ظلها أن يذهبوا للحج ويعودوا منه بأمان، وذلك ليتمكن العرب الذين كانوا يأتون إلى الحج من كل ناحية، من القدوم إلى مكة، والعودة إلى منازلهم أثناءها دون خوف ولا حرج، وهي مدة تناسب المسافة التي تشمل المنطقة العربية وما جاورها، وهذا يؤكد شمول الدعوة إلى الحج في هذه المنطقة ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:27).

ولقد ذكر في الأخبار أن العرب كانوا يلبون في حجهم، والتلبية إجابة المنادي[95]، وذكر في الأخبار صيغ كثيرة للحج حسب ما اتخذ من شركاء مع الله سبحانه وتعالى، وقد توحدت جميع الصيغ في استهلالها وهي "لبيك اللهم لبيك[96]"، وهذا يعني أن هذه الزيارة في المقام الأول هي التقرب إلى الله عز وجل، فهذه التلبية إجابة لنداء أو آذان إبراهيم عليه السلام بالحج للناس ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:27)، وقد وصف الله عز وجل تحريف صيغة التلبية بقول الزور بحسب تفسير بعض المفسرين وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ... فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُنَفَاءَ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ .. ﴾ (الحج:30، 31) حيث حرفوه بقولهم "أي قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك[97]".

ولم يتوقف تحريف الشعائر التي ورثوها من النبي إبراهيم عليه السلام في التلبية فقط، بل أنهم أضافوا وغيروا، يقول الأزرقي: "وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت، والطواف به والحج والعمرة، والوقوف على عرفه، ومزدلفه

---

[95] لسان العرب، ج 5، ص3981.

[96] ينظر: ابن الكلبي، الأصنام، ص6، 7، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (بيروت، دار صادر، 1379هـ 1960م)، ص255، 256.

[97] دروزة، التفسير الحديث، ج 6، ص 45.

وهدي البدن، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه[98]"، لذلك قام الإسلام بتنقية ما ليس منه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة:189)، ﴿.. وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ... ﴾ (البقرة:196)، ﴿...وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج:30)، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 199).

ولقد كان هذا التحريف كون العرب أشركوا الملائكة مع الله في العبادة، فأحدثوا من البدع ما لم يكتبها الله عليهم، وكانوا يعتقدون أنها تقاليد من أمر الله وشرعه، ويمارسونها ويحترمونها على هذا الاعتبار بسبيل شكر الله أو التقرب إليه لتحقيق مطالبهم ورغباتهم وأنهم قد تلقوها كذلك عن آبائهم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنفال:35)، والطواف عراة، وقد أشارت الآية القرآنية لذلك في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى .. يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ﴾ (الأعراف 31، 32)، يقول الطبرى في تفسير هاتين الآيتين: "كانت قريش تطوف عراة لا يلبس أحدهم ثوباً طاف فيه وقد كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة[99]"، وما جعلهم يقدمون على التعري إلا أنهم يُقرّن بالذنب ويتحرجون من الطواف بثياب اقترفوا الذنب بها، وهذا دليل على شدة تقديسهم للكعبة، مهابة أن يطوفوا بها وعليهم ثياب لا تناسب مقامها، وقد يكون هذا تحريف لمعنى لباس المحرّم الخاص الذي ورثوه عن إبراهيم عليه السلام.

وفي محاولة لتفسير الدين بناء على التطور من الوثنية إلى التوحيد عكس ما تؤكده هذه المقالة وهو أن معتقدات الشعوب هي التي حرّفت التوحيد إلى إشراك، ذهب أحد الباحثين إلى أن الكعبة هي في الأصل معبد للشمس، حيث يرى "أن هذا الحرم كان له صلة بالطقس

---

[98] الأزرقي، أخبار مكة، ج 1، ص 116.

[99] تفسير الطبري، ج 8، ص 147، 148.

الشمسي... وكانت تدل زاوية الحجر الأسود على اتجاه الشمس المشرقة[100]"، ويقول: "إن العابد إذ يوجه صلواته نحو الشمس المشرقة، إنما يضع جسده عفويا في خط النقاط الكبرى: يكون الجنوب عن يمينه، والشمال عن يمينه[101]"، إن هذا افتراض يرفضه ما اشتهر أن الكعبة بيت الله عز وجل عند العرب في الأخبار، وما ورد عن إجلال عرب الشمال والجنوب لمكة في النقوش كما سبق ولم يرد في الأخبار أو النقوش أنها كانت معبداً للشمس، وهل هناك دليل عنده ليثبت أن الطواف الذي هو عكس دوران الشمس كان من قبل طواف مع حركة دوران الشمس على الأرض، أما القول إن اليمن هي يمين الكعبة، والشام هو شمال الكعبة، فهذه التسمية إن كانت أتت كتعيين للاتجاهات، فالأغلب أن معيار الاتجاه هو الشمس، كوسيلة لمعرفة الاتجاهات الأربعة للمكان، ولا دخل لعبادة الشمس في تعيين الاتجاه، ولا دخل للكعبة فيها وإنما سمي بعد ذلك الركن اليماني والركن الشامي بعد تسمية البلدان.

ومن الملاحظ أن القرآن أعاب على المشركين عدم الصلاة أو التهاون فيها، وذلك في وقت مبكر جداً من الدعوة، الآيات: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى﴾ (القيامة:31)، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُون﴾ (الماعون:5)، يقول الواحدي في سبب نزول الآية: "قال مقاتل والكلبي نزلت في العاص بن وائل السهيمي وقال ابن جريج: كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئا فقرعه بعضا فأنزل الله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون:1، 2)[102]"، وقد وردت روايات تخبر عن ممارسة شعيرة الصلاة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ففي رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يا ابن أخي صليت سنتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال: قلت : فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله[103].

وهذه الأدلة تشير إلى أن الصلاة التي تشمل القيام والركوع والسجود كانت معروفة قبل الإسلام وكانت على ملة إبراهيم عليه السلام، حيث وردت صفة هذه الصلاة في الآية التي ارتبطت بذكره ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج: 26)، ﴿رَبَّنَا

---

[100] يوسف شلحد، بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، (بيروت، دار الطليعة، ط 2، 1996)، ص 150.

[101] السابق، ص 147.

[102] علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، مطبعة هندية في غيط النبي بمصر 1315هـ، ص342.

[103] صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، موسوعة الحديث الشريف، ص 1112.

إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ... ﴾ (إبراهيم:37)، ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم:40)، وقد توارثها العرب بعد ذلك، وأضاعوها كما أضاعوا وحرفوا كثيرا من تعاليمه ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياًّ﴾ (مريم:59).

ويبدو أن صلاة الجمعة كانت مظهراً دينياً متوارثاً عند العرب، فقد روي أنه "قد كان يُقال له في اللغة القديمة يوم العروبة، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه[104]"، وقد ورد في الأخبار "أن كعب بن لؤي أول من جمع يوم العروبة ولم تسم العروبة الجمعة إلا مذ جاء الإسلام وهو أول من سماها الجمعة فكانت قريش تجتمع إليه في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ويعلمهم أنه من ولده ويأمرهم باتباعه والإيمان به[105]".

ويمكن القول إن الوضوء والغسل من الجنابة مما عرفته العرب قبل الإسلام من ملة إبراهيم عليه السلام، "ذكر السكري أن العرب كانت دون من سواها من الأمم، تصنع عشرة أشياء منها: في الرأس خمسة. وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب. وفي الجسد خمسة. هي: الختانة وحلق العانة ونتف الأبطين، وتقليم الأظافر والاستنجاء. خصت بهذا العرب، دون الأمم[106]"، وقد ورد في صدد قصة إسلام عمر ابن الخطاب أمر اغتساله من الجنابة حتى يمس صحيفة فيها آيات من القرآن الكريم[107].

وهكذا يظهر أن ما كان لدى العرب في الجاهلية من شرائع وعبادات ومناسك لها صلة من قريب أو بعيد بالإسلام، فإن مرجعها إلى دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام شأنها في ذلك شأن معتقداتهم في الله وملائكته ورسله.

---

104 صحيح مختصر تفسير ابن كثير، ج 3، ص1831.

105 السهيلي عبد الرحمن، الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، (دار الكتب الحديثة، ط 1، 1387هـ 1967م)، ج 1، ص51، 52.

106 ابن حبيب أبو جعفر محمد البغدادي، المحبر، (بيروت، منشورات دار الأفاق الجديدة)، ص 329.

107 سيرة ابن هشام، ج 1، ص345.

إشكالية الاعتقاد باليوم الآخر

يبقى إشكالية الإيمان بالحياة الآخرة وما يتضمنه من بعث للأجساد، حيث كان للعرب موقفاً مغايراً عن دين إبراهيم عليه السلام، وذلك كما ورد عنه في القرآن قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الشعراء: 82)، فقد كان ظاهر موقفهم الإنكار والتعجب.

لكن وصف عرب قبل الإسلام للحياة الأرضية بـ"الدنيا" يؤكد أن هناك معتقد خاص بهم، فهو اسم يطلق على مقابل شيء آخر إما أن يكون القريب، أو الأسفل، مقابل شيء آخر بعيد أو أعلى، يقول الله تعالى على لسانهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (المؤمنون:37، 38)، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام:29)، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:24)، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (البقرة:200)، وفي إطلاق هذا الاسم "الدنيا" إشارة على ما فيه موروث الديني سماوي لهم.

وقد ساعدت الصورة الباهتة للحياة الآخرة في معتقد أهل الكتاب إلى خلق المعتقد الجديد، فإنه "لا يوجد في الأسفار نصوص صريحة عن الآخرة وحسابها وعقابها وثوابها[108]"، "ولا توجد في كتب العهد القديم الأولى أية إشارات إلى بعث الموتى أو الحياة الأبدية، إذ يبدو أن العبرانيين القدامى لم يكونوا من المؤمنين بالبعث، وإنما كانوا يؤمنون بأن الإنسان جسد يفنى بالموت. وحتى بعد أن ظهرت فكرة خلود الروح، فإن هذه الفكرة لم تكن بعد مرتبطة بفكرة البعث والخير والشر والثواب والعقاب، إذ أن الروح كانت تذهب بعد الموت إلى مكان مظلم يسمى شيول، حتى تبقى إلى الأبد[109]".

---

[108] دروزة، التفسير الحديث، 298/3.

[109] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (القاهرة: دار الشروق، 1999م)، ج 5، ص 283.

لقد أصبح مفهوم ما بعد الحياة الدنيا أي ما بعد الموت، هو اعتقاد بقاء الروح بعد فناء الجسد، "فهم يتصورون أن روح الإنسان كائن مستقل إذا فارق الجسد مات[110]"، فالروح في اعتقاد المشركين العرب لا ترحل بعيداً باتجاه العالم الآخر لأنه ليس ثمة عالم آخر في معتقداتهم، وإنما هي تلازم القبر، لذا لم يكن الجدل بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا في عودة الأجساد مرة أخرى خلقاً جديداً بعد أن تكون رفاتاً وتكون عظاماً نخرة. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ (الإسراء:49)، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الواقعة:47)، ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ، أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ (النازعات:10، 11)، ﴿قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ، 78)، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ... ﴾ (النحل،38).
يذكر أحد الباحثين في تاريخ أدب تلك الفترة أن هناك اعتقاد في بقاء الروح بعد الموت، أي أنها لا تفنى بفناء الجسد، يقول: "وآية ذلك ما تظهره أخبارهم وأشعارهم من تصورهم بقاء الروح في شكل طائر، شبيه بالبومة، ينبعث من رأس الميت، أو من جسمه، أو من بقايا عظامه، فيظل مده مطيفاً بقبره أو بالمكان الذي دفن فيه، وقد دعوه بالهامة[111] والصدى[112]"، وقد استشهد ببعض الأبيات الشعرية، ما أشار إليه لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه، معتقدا أن مآل الناس جميعا أن يكونوا طيورا، إما هاما وإما أصداء.

وليس الناس بعدك في نقير ولا هم غير أصداء وهام[113]

وقد يؤكد هذا الرأي ما وجد في مقابر المنطقة العربية فـ"قد وجدت في قبور جنوب الجزيرة حلى وكئوس وأختام وأشياء من كل نوع، وهذا يشير إلى الإيمان بالحياة الأخرى[114]"، أو يشير إلى بقاء الميت بروحه فقط كما دل أدبهم على ذلك.

---

110 جواد علي، المفصل، ج 6، ص123.

111 عد الإسلام الهامة ظاهرة من مظاهر الشرك، ونهى عن الاعتقاد بها، إذ ورد في الحديث عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:" لا عدوى، ولا طيرة ، ولا هامة ،ولا صفر"صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الجذام، موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، ص488.

112 عاطف محمد مصطفى كنعان، الإنسان في الشعر الجاهلي، ص323.

113 ديوان لبيد بن ربيعة، (بيروت، لبنان: دار صادر)، ص 203.

114 موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ص 166.

ولقد فهم البعض أن الآية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:24) هي حكاية عن ما أسموه الدهريين أو الطبائعيين أي الذين يقولون بإسناد الحوادث إلى الدهر واستقلال الدهر بالتأثير، فقد ذكر الشهرستاني أنهم "أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر والمفني[115]". ومن المتبادر أن هذا التفسير واقع تحت تأثير النزعات الفلسفية، فالعرب في الجاهلية وإن كذب بعضهم الرسل وأنكر البعث كانوا يقرون بالخالق ولا ينكرون وجوده، فالآية نازلة على ما يظهر في إنكار المشركين للبعث لا في إنكارهم الخالق، وهذا ظاهر من السياق فالآيات التي تلتها ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية:25، 26)، فهي تدل على أن الإنكار كان للبعث والحساب، بطلب عودة الآباء، ثم تذكير القرآن لهم أن الله الذي أحياهم ثم يميتهم هو القادر على ذلك، جرياً على ما ذكرته آيات كثيرة في هذا الصدد، أما قولهم ما يهلكنا إلا الدهر لعلهم يعنون أننا لا نموت إلا بطول الزمان وتعاقب كراته وبما يحدثه هذا التعاقب. فإن إضافة الإماتة والإحياء إلى بعض ما خلق الله لا يدل على إنكار الله فالناس كلهم يقولون سطا عليه سيف الهرم وطول العمر[116].

لكن الفكرة السماوية للحياة الآخرة ظلت موجودة عند بعض أو قلة من عرب قبل الإسلام، بل "يلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهليين[117]"، ويمكن فهم حكاية أحد المشركين في القرآن على هذا النحو ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً، أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ (مريم:77، 78).

الخاتمة

---

[115] الشهرستاني، الملل والنحل، ج 2، ص 582.

[116] ينظر، عبد الله على القصيمي، الصراع بين الإسلام والوثنية، ج 2، ص 150.

[117] جواد علي، المفصل، ج 6، ص 131.

وهكذا أوضحت هذه الدراسة من خلال البيان القرآني للآيات التي تناولت عقيدة العرب قبل الإسلام أن معتقدات العرب قد استمدت أصولها من دين سماوي مثل أرضية لديانة عرب قبل الإسلام، فظل الاعتقاد بالله عز وجل لكنه كإله أعلى سبحانه، وظلت عبادته كما مارسها إبراهيم عليه السلام مع ما ألحقت بها من وثنيات، وبقي الإيمان بالملائكة ككائنات سماوية غيبية لكن مع اعتقاد بمكانة خاصة أدت إلى عبادتها وتجسيدها كرموز أرضية وسماوية، واستمر الإيمان بالأنبياء لكن من خلال مذهب الآباء، واستقر في أذهانهم دلالة روحية باهتة للحياة الآخرة.

ومن خلال هذه الدراسة يتضح ضرورة النظر إلى معتقد العرب قبل الإسلام من ناحية التحريف الذي طرأ على ديانة سماوية تعود بعهدها إلى إبراهيم عليه السلام في منطقة الجزيرة العربية، ومن الضروري أن يأتي الإسلام مصححاً ما وقع على هذه الديانة من شرك. ومن هنا يمكن إبطال شبهة تأثر الإسلام بما كان عليه العرب من ديانة.